بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 06 أبريل 2017

لاهوتُ التحرير أو الدّينُ مناضلاً

منّوبي غبّاش
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الملخّص:

يمثّل "لاهوت التحرير" المسيحي الذي تبلورت ملامحه في أمريكا اللاتينيَّة في القرن العشرين علامة فارقة في تاريخ المسيحيَّة بصفة عامَّة وفي تاريخ اللَّاهوت المسيحي بصفة خاصَّة. لقد جمعت هذه الظاهرة بين ما هو روحي وما هو زمني، بين القيم الدينيَّة الكونيَّة والاهتمام بمتطلّبات الحياة الماديَّة، وبين الإيمان والعمل. ولكنَّ الأهمَّ هو أنَّ لاهوت التحرير، باعتباره تجربة نموذجيَّة، سمح بإعادة النظر في قيمة الدّين وفي الدور الذي يمكن أن يلعبه في حياة البشر. لا شكَّ أنَّ لاهوت التحرير مثّل ثورة حقيقيَّة في فضاء المسيحيَّة الروحي، وذلك لأنَّ بروزه يعني القطع مع تقليد التحالف القديم بين الكنيسة والسلطة السياسيَّة.

هل يمثّل "لاهوت التحرير" ظاهرة تاريخيَّة مشروطة بأسباب سياسيَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّة في النصف الثاني من القرن الماضي، أم أنَّه يمثّل تجلّي الروح الثوريَّة المميّزة للدّين المسيحي؟ ألا يدعونا "لاهوت التحرير" إلى إعادة النظر في مواقف سائدة من الدّين مثل الموقف الوضعي الذي يعتبره شكلاً من أشكال الوعي البدائي وأثراً للمرحلة اللَّاهوتيَّة ما قبل العلميَّة، والموقف الماركسي الأرثوذوكسي الذي يرى فيه مجرَّد إيديولوجيا مزيّفة للوعي الجمعي؟ ألا تحثّنا ظاهرة لاهوت التحرير على إعادة التفكير في علاقة الروحي بالزمني، بحيث لا نرى في الدّين مجرَّد تجربة روحيَّة شرطها الأساسي انقطاع المؤمن عن الحياة الماديَّة؟ لعلَّ هذه الأسئلة هي التي وجَّهت بحثنا في ظاهرة "لاهوت التحرير" التي يمكن اعتبارها جانباً عملياً للَّاهوت السياسي المعاصر.

من المؤكد أنَّ لاهوت التحرير المسيحي اقترن بتجربة في التديُّن غير مألوفة، تجربة تختلف عن البحث الفردي للخلاص الشخصي، وتقوم على فكرة أساسيَّة وهي أنَّ "الإثم" أو الخطيئة لا تُحيل إلى بداية يمكن أن يستحضرها الوعي عبر التّمَاهِي مع المسيح المخلّص، بل إنَّها متحقّقة الآن وهنا، ومتجسّدة في كلّ أشكال الظلم والقهر والإخضاع. ولذلك يقتضي الإيمان الحقيقي العمل من أجل مساعدة الناس على التحرُّر والتخلّص من وضعيَّة التبعيَّة والاستغلال. يمكن القول إنَّ البُعد "التحريري" والتحرُّري للمسيحيَّة الكاثوليكيَّة ليس وليد ظرف تاريخي أو حضاري معيَّن، إذ يمكننا البحث عن أصوله في بدايات الدّين التاريخيَّة. من المعروف أنَّ الديانات الكتابيَّة الكبرى ارتبطت عند ظهورها بحركات اجتماعيَّة مكوَّنَة من العبيد والمستضعَفين والمقهورين الذين مثّل الدينُ الجديدُ بالنسبة إليهم طريق الخلاص.

يُعدُّ لاهوت التحرير إجابة في السياق المسيحي عن مشكلات اجتماعيَّة وسياسيَّة وأخلاقيَّة عرفتها الدول الأوروبيَّة والولايات المتحدة الأمريكيَّة ودول أمريكا اللاتينيَّة التابعة اقتصادياً وسياسياً، التي كانت تحكمها

أنظمة عسكريَّة فاشيَّة متحالفة مع القوى الأجنبيَّة. أمام مظاهر الفقر وبؤس أوضاع العمال وتدهور أوضاع الطبقات الوسطى، وأمام عجز الأجهزة الإيديولوجيَّة القديمة بما فيها الكنسية عن تقديم المساندة النفسيَّة والروحيَّة لجماهير لم تعد تستسيغ خطب الإرشاد والدعوة إلى الصبر والتحمُّل، خاصَّة في وقت انتشرت فيه الماركسيَّة بكلّ اتجاهاتها من خلال الحركات الثوريَّة والمنظّمات النقابيَّة، بحيث مثّلت طرازاً جديداً للتفكير ونمطاً من الممارسة يقترح إمكانيات حقيقيَّة لتغيير الواقع نحو الأفضل.

مقدّمة:

يمثّل "لاهوت التحرير" المسيحي الذي تبلورت ملامحه في أمريكا اللاتينيَّة في القرن العشرين (الفترة المتراوحة بين الستينيات والثمانينيات من القرن العشرين) علامة فارقة في تاريخ المسيحيَّة بصفة عامَّة وفي تاريخ اللَّاهوت المسيحي بصفة خاصَّة. لقد جمعت هذه الظاهرة بين ما هو روحي وما هو زمني، بين القيم الدينيَّة الكونيَّة والاهتمام بمتطلبات الحياة الماديَّة، وبين الإيمان والعمل. ولكنَّ الأهم هو أنَّ لاهوت التحرير باعتباره تجربة نموذجيَّة سمح بإعادة النظر في قيمة الدّين وفي الدور الذي يمكن أن يلعبه في حياة البشر[1]. لم يعد الدّين مجرَّد رؤية لا عقلانيَّة للعالم ولا إيديولوجيا في متناول السلطة الحاكمة توظّفها لتزييف وعي الجماهير ولتكريس خضوع المستضعفين للطبقات المهيمنة. (على المؤمن أن يطيع الحاكم وعليه أن يصبر على الأذى ويتحمَّل الشقاء لأنَّ كلَّ ذلك بإرادة الله. هذا ما يأمر به الدّين ويتكفّلُ رجال الدين، سدَنةُ الحقيقة، بالتعبير عنه). لا شكّ أنَّ لاهوت التحرير مثّل ثورة حقيقية في فضاء المسيحيَّة الروحي، وذلك لأنَّ بروزه يعني القطع مع تقليد التحالف القديم بين الكنيسة والسلطة السياسيَّة. ولئن كانت المسيحيَّة في البداية دين الفقراء والمستضعفين فإنَّها بعد ذلك أصبحت الدّين الرسمي للإمبراطوريَّة الرومانيَّة بعد تنصُّر الإمبراطور قسطنطين. وخلال أغلب مراحل تاريخ المسيحيَّة في أوروبَّا لم يتغيَّر الأمر إلَّا لمَاماً.

هل "لاهوت التحرير" ظاهرة تاريخيَّة مشروطة بأسباب سياسيَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّة في النصف الثاني من القرن العشرين أم أنَّه يمثّل تجلّي الروح الثوريَّة المميّزة للدّين المسيحي؟ ألا يدعونا "لاهوت التحرير" إلى إعادة النظر في مواقف سائدة من الدّين مثل الموقف الوضعي الذي يعتبره شكلاً من أشكال الوعي البدائي وأثراً للمرحلة اللاهوتيَّة ما قبل العلميَّة، والموقف الماركسي الأرثوذوكسي الذي يرى فيه أداة إيديولوجيَّة لتزييف الوعي الجمعي؟ ألا تحثّنا ظاهرة لاهوت التحرير على إعادة التفكير في علاقة الروحي بالزمني بحيث لا نرى في الدّين مجرَّد تجربة روحيَّة شرطها الأساسي انقطاع المؤمن عن الحياة الماديَّة؟

[1]. La vraie fonction de la religion n'est pas, nous dit Durkheim, d'augmenter notre connaissance, mais de nous faire agir, de nous aider à vivre: « Le fidèle qui a communié avec son Dieu n'est pas seulement (ni surtout) un homme qui voit des vérités nouvelles que l'incroyant ignore ; c'est un homme qui peut davantage. Il sent en lui plus de force, soit pour supporter les difficultés de l'existence, soit pour les vaincre. Il est comme élevé au-dessus des misères humaines, parce qu'il est élevé au-dessus de sa condition d'homme », Emile Durkheim, Les Formes élémentaires de la vie religieuse, puf, Paris, réédition de 1960, p. 50-51.

لا شكَّ في أنَّ ما جعل لاهوت التحرير المسيحي ذائع الصيت هو أنَّه اقترن بتجربة في التديُّن غير مألوفة، تجربة تختلف عن البحث الفردي عن الخلاص الشخصي، وتقوم على فكرة أساسيَّة وهي أنَّ "الإثم" أو الخطيئة لا تُحيل إلى بداية يمكن أن يستحضرها الوعي عبر التمَاهِي مع المسيح المخلّص، بل إنَّها متحقّقة الآن وهنا ومتجسّدة في كلّ أشكال الظلم والقهر والإخضاع. ولذلك يقتضي الإيمان الحقيقي العمل من أجل مساعدة الناس على التحرُّر والانعتاق. إنَّ هذا البُعد التحريري والتحرُّري للمسيحيَّة الكاثوليكيَّة ليس وليد ظرف تاريخي أو حضاري معيَّن، إذ يمكننا البحث عن أصوله في بدايات الدّين التاريخيَّة.

من المعروف أنَّ الديانات الكتابيَّة الكبرى ارتبطت عند بداياتها بحركات اجتماعيَّة مكوَّنَة من العبيد والمستضعَفين والمقهورين والمُهمَّشين الذين مثّل الدينُ الجديدُ بالنسبة إليهم طريقاً إلى الخلاص وصاحبه (النبيّ) منقِذًا ونصيراً. ثمَّة فكرة مشترَكة بين الديانات الكبرى يجب أن تُؤخذ في الاعتبار إذا ما رُمْنا فهْم البُعد التحرُّري للدّين، وهي فكرة الاحتفاء بالفقراء والمستضعفين والعبيد، وهي لا تعني شيئاً آخر غير الاعتراف بكرامة هذه الأصناف من الناس. وليس أمراً عارضاً أن نجد أنَّ الأنبياء الذين ساهموا في توجيه مسار التاريخ، أولئك الأبطال الحضاريين، كانوا فقراء أو في أسفل السلم الاجتماعي (المسيح كان نجَّاراً)، كما أنَّ جمهورهم وأنصارهم في بدايات دعوتهم كان مكوَّناً مِمّن هم في الوضعية الاجتماعية نفسها.

إذا صحَّ أنَّ الأديان السماويَّة ارتبطت بحركة اجتماعيَّة "تحرُّريَّة" فكيف نفسّر ارتباط "لاهوت التحرير" بالمسيحيَّة حصراً (وبشكل خاصّ بالمسيحيَّة الكاثوليكيَّة)؟ إنَّ مقصدنا هو أن نبيّن ملامح "لاهوت التحرير" كتجربة فكريَّة ونضاليَّة في أمريكا اللاتينيَّة قُبلت باعتبارها تجديداً في الفضاء الروحي للمسيحيَّة. وفي ما نحن بسبيله سننظر في مسائل ثلاث: أولاً: ما هو لاهوت التحرير؟ ثانياً: علاقة لاهوت التحرير بالماركسيَّة، وثالثاً: القيمة التاريخيَّة للاهوت التحرير.

ما هو لاهوت التحرير؟

يمكن تعريف لاهوت التحرير بالنظر إلى الموضوعات والمسائل التي يتعلق بها، وبإمكاننا أن نميز فيه بين جانبين: الجانب العقائدي الفكري والجانب العملي التطبيقي، بحيث نستطيع الانطلاق من التعريف التالي: "لاهوت التحرير" يدلُّ على مجموعة الخطابات والمفاهيم النظريَّة التي أنتجها لاهوتيون مسيحيون في الفترة الممتدة بين العشرينيات والثمانينيات من القرن العشرين، ويدلُّ أيضاً على ممارسة اجتماعيَّة محدَّدة تمثلت في النضال الاجتماعي والكفاح العسكري من أجل تحرير شعوب أمريكا اللاتينيَّة من استبداد الأنظمة الحاكمة ومن

التبعيَّة السياسيَّة للدول الإمبرياليَّة. ليوناردو بوف Leonardo Boff أحد أبرز لاهوتيّي التحرير يُعرّف لاهوت التحرير بأنَّه تفكير في الممارسة (البراكسيس Praxis) وانعكاس لها. إنَّه تعبير عن/ وشرعنة "لحركة اجتماعيَّة واسعة النطاق انطلقت في بداية الستينيات وقبل أن تظهر كتب اللَّاهوت الجديدة". اشتملت هذه الحركة على قطاعات هامَّة من المجال الكنسي (قِسّيسون وأسَاقفة وأحبَار) وطوائف وحركات دينيَّة لائكيَّة (منظّمة العمل الكاثوليكي، الشبيبة الجامعيَّة المسيحيَّة، العمَّال المسيحيُّون الشبان...إلخ)، وتدخُّلات بابويَّة ذات قاعدة شعبيَّة وجماعات كنائسيَّة قاعديَّة (CEB)[2]. إنَّه بدون هذه الممارسة الاجتماعيَّة لا يمكننا أن نفهم ظواهر اجتماعيَّة وتاريخيَّة هامَّة مثل المدّ الثوري في أمريكا الوسطى أو بروز الحركة العماليَّة الجديدة في البرازيل. يمكن القول إنَّ لاهوت التحرير[3]بما هو مجموعة خطابات لاهوتيَّة/ سياسيَّة هو المذهب المعبّر عن الحركة الاجتماعيَّة التي أخذت في لحظات معيَّنة شكل الكفاح المسلح. ولكن يجب التنبيه إلى أنَّ لاهوت التحرير وُلد وتبلورت ملامحه في إطار الكنيسة الكاثوليكيَّة، وتحديداً بعد انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني بين سنتي 1962 و1965. خلال هذا المجمع ظهرت مواجهة حادَّة بين أنصار "اللَّاهوت المدرسي الجديد" (يمثله كارل راهنر K. Rahner) وأنصار أنماط أخرى جديدة من اللَّاهوت المسيحي: اللَّاهوت الأنثروبولوجي الترنسندنتالي واللَّاهوت السياسي (يمثله جون بتست ميتز J.-P.Metz) ولاهوت الرجاء ويمثّله مولتمان Moltman[4]. كان لا بدَّ للكنيسة من أن تعيد النظر في توجُّهاتها القديمة وخاصَّة في علاقتها بالسلطة القائمة، وهي علاقة رأى أنصار اللَّاهوت الجديد أنَّها علاقة مهادَنة وتبعيَّة أدَّت إلى انحرافها عن الوظيفة الأساسيَّة التي من أجلها وُجدت. في المؤتمر الأسقفي الذي عُقد في تمُّوز/ يوليو سنة 1968 تشكَّلت ملامح لاهوت جديد. فقد "اجتمع أبرز ممثّلي لاهوت التحرير في شمبوته (دولة البيرو) حيث قام غوتييرّيز بعرض شامل لرؤيته لما يُسمَّى لاهوت التحرير، وكان هذا العرض بمثابة حجر أساس لبناء هذا التيَّار الجديد"[5].

يُعدُّ كتاب غوتييريز "لاهوت التحرير: الآفاق" الصادر سنة 1971بمثابة الوثيقة التأسيسيَّة للاهوت التحرير، إذ تضمَّن المبادئ والتوجُّهات الأساسيَّة لنوع جديد من اللَّاهوت لا يدعو إلى القطع مع الكنيسة الرسميَّة بقدر ما يدعو إلى تحويلها بصورة جذريَّة كي تواكب التحوُّلات الكبرى التي يعرفها العالم، وتستجيب

---

[2]. Michael Löwy, « Marxisme et théologie de la libération », Cahiers d'Étude et de recherche, n° 10, 1988 (Montreuil, France), p.9.

[3]. لاهوت التحرير هو المدوَّنة Corpusالتي أنتجت منذ سنة 1970 من قِبل رموز لاهوت التحرير مثل غوستافو غوتيرّيز G. Gutierrez (البيرو) وروبام ألفاس Rubem Alves وهوغو أسمان Hugo Assman وكارلوس ميستراس Carlos Mestres وليوناردو وكلودوفيس بوف Leonardo Boff / Clodovis Boff وانياسيو إلاكوريا Ignacio Ellacuria (السلفادور) وسوغوندو غاليليا Segundo Galilea ورونالدو مونوز Ronaldo Munoz (التشيلي) وبابلو ريتشارد Pablo Richard (التشيلي) وخوزي ميغال بونينو José Miguel Bonino وخوان كارلوس سكانوني Juan-Carlos Scannone (الأرجنتين) وانريك دوسّال E. Dussel (المكسيك) وجون لويس سوغندو J-L Segundo (الأوروغواي) وغيرهم كثير.

[4]. وليم سيدهم اليسوعي, لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية: نشأته، تطوّره، مضمونه، دار المشرق، بيروت 1993، ص 40.

[5]. وليم سيدهم, لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، ص 45 و48.

لانتظارات الملايين من البشر الذين يعانون من الفقر والاستبداد والتبعيَّة. في هذا الكتاب عبَّر غوتيرييز عن قبول لاهوت التحرير بالماركسيَّة كأداة فكريَّة للتحليل وللنقد الاجتماعي والسياسي، وذلك انطلاقاً من كون العقائد الإيمانيَّة المسيحيَّة لا تتناقض مع النضال الثوري وفق المنهاج الماركسي من أجل إلغاء الواقع الراهن القائم على الهيمنة السياسيَّة والاستغلال الاقتصادي[6]. يقول غوتيرييز: "إنَّ ما يضع حدَّاً لهذه التبعيَّة هو التحطيم الكامل لحالة الأشياء الراهنة والتحويل الجذري لنظام الملكيَّة ووصول الطبقة المستغَلة إلى السلطة وثورة اجتماعيَّة. وتلك الأشياء تحديداً هي التي تسمح بالانتقال إلى المجتمع الاشتراكي أو على الأقل تجعله ممكناً[7]". لم يقبل غوتيرّيز كغيره من لاهوتيّي التحرير بـ"إيديولوجيا النموّ" التي كانت رائجة في ذلك الوقت (ارتباط دول أمريكا اللاتينيَّة بالدول الرأسماليَّة المتقدّمة وفتح الأسواق المحليَّة أمام رأس المال الأجنبي هو الطريق الوحيدة لتحقيق الازدهار الاقتصادي والنموّ). بالنسبة إلى غوتيرّيز، كأيّ ماركسي، تلك الإيديولوجيا ليست إلا تكريساً للتبعيَّة بما تعنيه من نهب للثروات وفقر وتخلّف.

في كتاب غوتيرّيز ثمَّة أفكار أساسيَّة ستتكرَّر في كلّ خطابات لاهوت التحرير وسيتمُّ التنصيص عليها في المؤتمرات الأسقفيَّة اللاحقة:

- رفض الفصل بين الزمني والروحي أو بين التاريخ الدنيوي والتاريخ المقدَّس.

- الافتداء (Rédemption) أو إنَّ مملكة الرب يجب أن تتحقّق على الأرض، أي إنَّ الخلاص لا يتمّ إلا في هذا العالم ولا يجب انتظار الخلاص في اليوم الآخر.

- على الكنيسة ألَّا تكون سنداً لنظام الهيمنة[8].

يمكن القول إنَّ لاهوتيّي التحرير ينطلقون في كتاباتهم، على اختلافها، من المذهب التقليدي الراسخ في الكنائس الكاثوليكيَّة والبروتستانتيَّة، ويشتركون في مجموعة من المبادئ هي عينها مبادئ المسيحيَّة التحرُّريَّة:

1) الإدانة الشديدة للرأسماليَّة التابعة باعتبارها نظاماً جائراً وغير عادل، وباعتبارها "خطيئة" جماعية.

2) استعمال أداة التحليل الماركسي لفهم أسباب الفقر وتبيّن تناقضات الرأسماليَّة.

6. Alain Touraine, La parole et le sang: politique et société en Amérique Latine, Éditions Odile Jacob, Paris, 1988, p. 109.

7. Gustavo Gutierrez, La théologie de la libération, perspectives, Bruxelles, Lumen Vitae, 1974, p.39-40.

8. Michael Löwy, « Marxisme et théologie de la libération », p.6.

3) الانحياز للفقراء والتضامن معهم في نضالهم.

4) تطوير الجماعات المسيحيَّة القاعديَّة المكوَّنة أساساً من الفقراء، وذلك كبديل عن نمط العيش الفرداني المفروض من قبل الرأسماليَّة العالميَّة.

5) إبراز نوع من القراءة الجديدة للإنجيل تركّز على مقاطع معينة مثل "الخروج" (Exodus) وتقديمها كنموذج لنضال شعبٍ مستعبدٍ من أجل التحرُّر.

6) النضال ضدَّ الوثنيَّة (Idolatry) وليس ضدَّ الإلحاد (Atheism)باعتبارها العدوَّ الأساسي للدّين، ضدَّ أوثان الموت الجديدة المعبودة من قِبَل الفراعنة الجدد: الثروة، القوة العسكريَّة، الأمن الوطني، الدولة، الحضارة المسيحيَّة الغربيَّة، السعادة الشخصيَّة...إلخ.

7) التحرير التاريخي للإنسان هو تمهيد للخلاص الأخرَويّ، أي لتحقيق مملكة الرَّب.

8) نقد اللاهوت الثنائي التقليدي باعتباره استمراراً للفلسفة الأفلاطونيَّة وليس للتقليد الإنجيلي.

لا شكَّ أنَّ هذه المبادئ التي حدَّدت توجُّهات لاهوت التحرير تفسّر انتشاره الواسع في مستوى القارَّة، وكذلك القبول والتعاطف الذي حظي به في مستوى العالم. لقد كان على اللاهوتيين الجدد في أمريكا اللاتينيَّة أن يناضلوا على جبهتين من أجل فرض رؤيتهم وضمان إمكانيَّة نجاح مشروعهم: النضال الاجتماعي مع الفقراء (العمل الاجتماعي، تكوين الجمعيَّات المسيحيَّة وتوجيهها) والثوريين (الكفاح المسلح كما حصل في نيكاراغوا) من جهة، والنضال الفكري العقائدي ضدَّ الاتجاهات اللاهوتيَّة الأخرى السائدة في القارَّة من جهة أخرى. لقد اقترن لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينيَّة بعلم اجتماع "التبعيَّة"، وذلك في سياق انفتاحه على العلوم الإنسانيَّة وعلى التوجُّهات الماركسيَّة الجديدة[9].

لقد وجدت في أمريكا اللاتينيَّة أربعة توجهات كنسيَّة:

أوَّلاً: اتجاه أصولي جدّ محافظ وأحياناً شبه فاشي، يمكن اعتبار جماعة "تقليد-عائلة- ملكيَّة" نموذجه الأبرز. ثانياً: اتجاه تقليدي ومحافظ ومعادٍ للاهوت التحرير بحكم ارتباطه بالطبقات المهيمنة سياسياً واقتصادياً، ويمكن اعتبار قيادة "مؤتمر أساقفة أمريكا اللاتينيَّة" (CELAM) مُمَثلاً له. ثالثاً: اتجاه إصلاحي وحَدَاثي مدافع عن حقوق الإنسان ومناصر للفقراء (كان هذا هو الموقف الغالب في مؤتمر بويبلا Puebla عام

[9]. Alain Touraine, La parole et le sang, p.110.

1979). رابعاً: أقليَّة لاهوتيَّة راديكاليَّة قريبة من لاهوت التحرير عبَّرت عن تحالفها مع الحركات الفلَّاحيَّة والعمَّاليَّة[10]. يمكن اعتبار "حركة المسيحيين من أجل الاشتراكيَّة (MCS) أهمَّ معبّر عن هذا التوجُّه.

يحيل مفهوم "لاهوت التحرير" إلى حركة اجتماعيَّة لها دوافع ومحدّدات دينيَّة، وككلّ حركة اجتماعيَّة فهي تتحدّد بمكان وزمان معيّنيْن. والسؤال الذي يُطرح هنا هو: لماذا ظهر لاهوت التحرير تحديداً في أمريكا اللاتينيَّة خلال الستينيات من القرن العشرين؟ كجواب عن هذا السؤال يقترح الباحث الأمريكي طوماس برنو Thomas Burneau التفسير التالي: لقد حصل التجديد في الكنيسة الكاثوليكيَّة الأمريكيَّة اللاتينيَّة[11] لأنَّه من أجل أن تحافظ على تأثيرها في الجماهير كان عليها أن تنافس اتجاهات دينيَّة (البروتستانتيَّة، الطوائف) وسياسيَّة (الحركات اليساريَّة)، وكان عليها أن تتعامل مع أمرين؛ ضعف الإيمان من جهة وأزمة التمويل من جهة أخرى، ولهذا فقد التفتت إلى الطبقات الدنيا. مصلحة الكنيسة كمؤسسة هي التي جعلتها تتجه الوجهة الجديدة فيظهر لاهوت التحرير. إنَّ هذا التفسير (تغيّرت الكنيسة لأنَّها تريد المحافظة على نفوذها) حسب ميخائيل لوفي Michael Löwy لا يكفي، ولهذا يطرح الأسئلة التالية: لماذا كان عليها أن تتوجَّه إلى الطبقات الدنيا المستضعَفة لتحقيق تلك الغاية؟ وما طبيعة النفوذ الذي كانت تسعى إليه؟ وهل حصل تغيُّر في المرجعيَّة القيميَّة التي تنطلق منها؟

ثمَّة تفسير آخر يقول به ذوو التوجه المسيحي اليساري؛ ومفاده أنَّ الكنيسة تغيَّرت لأنَّ "الشعب" تغيَّر فتملّك مؤسسة الكنيسة فصارت تتكلم باسمه. ولكن كيف حصل ذلك؟ كيف أمكن للطبقات الشعبيَّة أن تغيّر توجُّه الكنيسة التي كانت لحقب طويلة متحالفة مع السلطة القائمة؟ التفسير الثاني يتجاهل ما يسمّيه اللاهوتي ليوناردو بوف بـ"الاستقلاليَّة النسبيَّة للمجال الديني-الكنائسي"، أي «المحدّدات الاجتماعيَّة والثقافيَّة الخاصَّة بالكنيسة»[12]، والتي بدونها لا يمكن أن نفهم انفتاحها على الشعب.

ثمَّة تغيُّران أساسيان حصلا في الكنسية الكاثوليكيَّة: أحدهما داخلي والآخر خارجي. التغيُّر الداخلي تمثَّل في بروز توجُّهات لاهوتيَّة جديدة منذ الحرب العالميَّة الثانية في ألمانيا (مولتمان Moltman وميتز Metz وراهنر Rahner)، وفي فرنسا (كالفاز Calvez وكنغار Congar ولوباك Lubac وشينو Chenu ودي كوك Duquoc). ونستطيع أن نضيف إلى ذلك الأشكال الجديدة من المسيحيَّة الاجتماعيَّة (القساوسة

[10]. Michael Löwy, « Marxisme et théologie de la libération », p.10.

[11]. T. C. Burneau, « Church and politics in Brazil: The Genesis of change » In Journal of American Studies, Cambridge University Press, Number 17, November 1985, pp. 286-29.

[12]. Michael Löwy, « Marxisme et théologie de la libération », p. 11.

العمَّال، الاقتصاد الإنساني للأب لوبري Lebret) بالإضافة إلى اهتمام اللَّاهوت بالمسائل الفلسفَّية والمشكلات التي أثارتها العلوم الاجتماعيَّة[13]. ولعل ما يجب التأكيد عليه في هذا السياق هو أنَّ البابا يوحنا الثالث عشر ومجمع الفاتيكان الثاني (1962-1965) سيبارك هذه التوجُّهات الجديدة التي انخرطت فيها الكنيسة.

وأمَّا على المستوى الخارجي، فقد تعلق الأمر بالأوضاع الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة في أمريكا اللاتينيَّة: تطوُّر التصنيع منذ 1950، وهو ما أدَّى إلى تكريس التبعيَّة للدول الرأسماليَّة، وإلى إفقار واسعِ النطاق، فنمت المدن بسبب الهجرة من الأرياف، وتكوَّنت طبقة عماليَّة عريضة ستكون محور الحركات الاجتماعيَّة للاهوت التحرير. وبالإضافة إلى كلّ ذلك هناك ظاهرة الانقلابات العسكريَّة واستفحال أزمة المشروعيَّة السياسيَّة خاصَّة بعد الثورة الكوبيَّة عام 1959. "إنَّ هذا الالتقاء في الوجهة بين هذين النوعين من التغيُّرات هو الذي أنتَجَ شروط إمكان ظهور "كنيسة الفقراء" الجديدة التي كانت جذورها سابقة على مجمع الفاتيكان الثاني"[14].

ليس لاهوت التحرير حركة من المركز نحو الأطراف ولا من القمَّة (الكنيسة) إلى القاعدة (الشعب)، بل هو حركة تتجه من الأطراف نحو المركز. فالفاعلون الكاثوليك في الأطراف هم الذين جعلوا منه ممارسة عمليَّة تهدف إلى تحقيق الخلاص المادي والاجتماعي[15]. ولعلَّ ما يدعم هذه الفكرة هو أنَّ عدداً كبيراً من القسَاوسَة أرسلوا إلى أمريكا اللاتينيَّة في مهمَّات تبشيريَّة في المناطق الفقيرة النائية. ولمَّا كانوا منحدرين من دول أوروبا الغنيَّة فقد وقفوا على التناقض الشديد بين الحياة في بلدانهم الأصليَّة وأوضاع البؤس والحرمان والفقر المدقع في دول أمريكا اللاتينيَّة[16]. لقد ولّدت فيهم هذه التجربة شعوراً قويَّاً بالتعاطف، وجَعلتهم يراجعون أفكارهم الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة وأن ينحوا بها إلى اليسار. لقد "أضحوا راديكاليين بسبب ما لاحظوه في الأحياء العماليَّة وأحسُّوا به فتحوَّلوا إلى اليسار سواء فيما يتعلّق بآرائهم اللاهوتيَّة أو بتحليلهم الاجتماعي"[17].

---

[13]. Michael Löwy, « Marxisme et théologie de la libération », p. 11.

[14]. Michael Löwy, « Marxisme et théologie de la libération », p. 12.

[15]. Malik Tahar Chaouch, « La théologie de la libération en Amérique Latine » in Archives de sciences sociales des religions, 138, Varia, Avril-Juin, 2007, pp. 9-28.

[16]. من أبرز أعلام لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية بالإضافة إلى تورّيز هناك غونزالو أرّيو Gonzalo Arroyo (ولد في التشيلي كان نفي إلى فرنسا بعد قيام الديكتاتورية) ودومنغو لايين Domingo Layen (كاهن اسباني ولد عام 1943 في سراغوزا. انتمي إلى الحركة العمالية في كولومبيا وانضمّ لجيش التحرير الكولومبي عام 1970) ودوم هلدر كامارا Dom Helder Camara وهو رئيس أساقفة ريسيف في البرازيل, عرف باسم "أسقف الفقراء" وكان من الذين دعوا إلى قيام حكومة اشتراكية في أمريكا اللاتينية وعرف عنه قوله إن "احتجاجات الفقراء هي صوت الله".

[17]. Brian H. Smith, The church and politics in Chili: challenges to modern Catholicism, Princeton, Princeton University Press,1982, p. 248

التحوُّل نحو اليسار[18] يعني اعتناق الماركسيَّة كأداة للتحليل والفهم وأيضاً كرؤية للنضال في سبيل التغيير الجذري.

لاهوتُ التحرير والماركسيَّة:

يُعدُّ لاهوت التحرير إجابة في السياق المسيحي عن مشكلات اجتماعيَّة وسياسيَّة وأخلاقيَّة عرفتها الدول الأوروبيَّة والولايات المتحدة الأمريكيَّة ودول أمريكا اللاتينيَّة التابعة لها اقتصادياً وسياسياً، والتي كانت تحكمها أنظمة عسكريَّة فاشيَّة متحالفة مع القوى الأجنبيَّة. أمام مظاهر الفقر وبؤس أوضاع العمَّال وتدهور أوضاع الطبقات الوسطى، وأمام عجز الأجهزة الإيديولوجيَّة القديمة بما فيها الكنسية عن تقديم المساندة النفسيَّة والروحيَّة لجماهير لم تعد تستسيغ خطب الإرشاد والدعوة إلى الصبر والتحمُّل، خاصَّة في وقت انتشرت فيه الماركسيَّة بكلّ اتجاهاتها من خلال الحركات الثوريَّة والمنظمات النقابيَّة، بحيث مثّلت طرازاً جديداً للتفكير ونمطاً للممارسة يقترح إمكانيات حقيقيَّة لتغيير الواقع نحو الأفضل. في هذا المناخ الفكري الذي هيمن عليه التوجُّه الاشتراكي وفي ظلّ الانقسام العالمي بين الكتلتين الرأسماليَّة والاشتراكيَّة ظهر لاهوت التحرير كحركة اجتماعيَّة محورها "ذات جماعيَّة" تهدف -من خلال مجابهة الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي للطغمات العسكرية التي كثيراً ما وجدت مساندة من الكنيسة الكاثوليكيَّة الرسميَّة ومن رجال دين مؤثرين (مثلاً مجلس أساقفة أمريكا اللاتينيَّة) - إلى بناء مجتمع الأُخوَّة والعدل والكرامة الإنسانيَّة. لا شكَّ أنَّ هذا المطلب أو هذا المثَلَ الأعلى الطوباوي هو الذي جمع بين اللَّاهوت الكاثوليكي الجديد والماركسيَّة، وما تسمية "كنيسة الفقراء" إلا تعبير عن الانقلاب الكبير الذي حصل في بنية اللَّاهوت المسيحي التقليدي ذاته. أن تنتصر الكنيسة، على الأقل من خلال تجربة اليسار المسيحي في أمريكا اللاتينيَّة، للفقراء وأن تُدين بشكل صريحٍ النظام الرأسمالي ومفاعيله السلبيَّة على البلدان والشعوب، فذلك يُعتبر بحقٍّ تغيُّراً جذرياً في الفكر اللاهوتي وفي توجُّه الكنيسة التي كانت خلال تاريخها الطويل مساندة للسلطان ومدافعة عن شرعيَّة الحكم وإن كان استبدادياً. لقد تجسَّد هذا التغيُّر الفكري واللَّاهوتي في مستوى التجربة الدينيَّة ذاتها. التديُّن ليس شأناً شخصيَّاً بل هو تجربة جماعيَّة،

[18]. يرى باحثون ان المسيحية اليسارية ظهرت في أوروبا قبل لاهوت التحرير. وقد عرفت موجتين: الأولى امتدت على الفترة 1924-1959 وتميزت بانفتاح اللاهوت المسيحي على الأفكار الفلسفية (النزعة الإنسانية والشخصانية والاشتراكية) وعلى العلوم الانسانية والاجتماعية. لقد حصل هذا التغيير بتأثير عدد من الفلاسفة والمثقفين المرموقين مثل ايف كونغر Yves Congar وماري دومينك شينو M.-D. Chenu وعمانويل مونيي Emmanuel Mounier وجاك ماريتان Jacques Maritain. والموجة الثانية للمسيحية اليسارية أو المسيحية المناضلة فقد تجاوزت حدود أوروبا نحو أمريكا اللاتينية وخاصة بعد مؤتمر أساقفة أمريكا اللاتينية في مدلّين عام 1968. راجع:

Michael Löwy, « Gerd-Rainer Horn, Western European Liberation Theology1924 -1959, the first wave », Sciences sociales des religions [En ligne], 148/octobre-décembre 2009, document 148-67. (http://assr.revues.org/21146).

تشـاركٌ أخـويٌّ بـين المـؤمنين فـي العمـل وفـي النضـال. إنَّ تجربـة الجمعيـات المسـيحيَّة القاعديَّـة[19] (Les communautés ecclésiastiques de base) التـي عُرِفـت فـي كثيـر مـن بلـدان أمريكـا اللاتينيَّـة منـذ الستينيات، والتي تطوَّرت في حـالات كثيـرة فانبثقت عنهـا حركـات ثوريَّـة راديكاليَّة، كمـا حصـل فـي البرازيـل ونيكاراغوا والسلفادور، هي نموذج لهذا النمط من تجربة التديُّن. تجربة دينيَّة هي في آنٍ واحدٍ روحيَّة معرفيَّة (قراءة الإنجيل والنقاش الجماعي حول المسائل الدينيَّة) وزمنيَّة دنيويَّة، إذ يتمُّ خلال الاجتماعات التداول في شؤون الجماعة الماديَّة والمَعاشيَّة. يُحيلُ هذا النوع من العيش المشترك إلى أشكال العيش الشيوعيَّة التي عرفها المسيحيون الأوائل، التي مثّلت نموذجاً خياليَّاً استلهم منه الكتاب الطوباويون تصوُّراتهم للمدن الفاضلة والحياة السعيدة مثل طوماس مور T. Moore وكامبانلّا Campanella.

نجد في الكتاب المرجعي للاهوت التحرير أي كتـاب غوتيرّيز إحـالات كثيـرة إلـى المدوَّنـة الماركسيَّة. والكاتب الماركسي الذي يحيل إليه غوتيرّز أكثر من غيره هو أرنست بلوخ E.Bloch، وإن كـان يحيل أيضـاً إلى غولدمان L. Goldman وغرامشي Gramsci ولوكاتش G. Lukács[20]. ونجد أيضاً استلهاماً من الثورة الكوبيَّة واستعمالاً لنظريَّة "التبعيَّة"، وكلُّ ذلك في إطار رؤيـة ماركسيَّة تتلاءم مـع الأوضـاع الخاصَّـة بأمريكـا اللاتينيَّة. يمكن القول إنَّ غوتيرّيز يستلهم من الماركسيَّة كـأفق نظـري لا كإيديولوجيا دوغمائيَّـة، ذلك أنَّـه يبـرز مفاهيم وموضوعات معيَّنة مثل النزعة الإنسانيَّة، والاغتراب، والصراع الطبقي، ويستبعد أخرى مثل الإلحـاد والتصوُّر المادي للتاريخ. إنّ فكرة التناغم بين الإيمان والنضال الثوري التي عبّر عنها غوتيرّيز في كتابه الذي صـار مرجعـا للمنتمين لحركـة لاهوت التحرير ستُترجم عمليّـا من خـلال الجمعيـات المسيحية وأشكال العمل الاجتماعي والحركات الشبابيَّة والنقابيَّة والأحزاب الثوريَّة. وكمثال على ذلك يمكن أن نذكر حركـة "مسيحيون من أجل الاشتراكيَّة" التي عقدت ملتقى قاريَّاً في سنتياغو بالتشيلي عام 1972 أداره اللاهوتي بابلو رتشارد P. Richard وعالم الاقتصاد غونزالو أرّويو G. Arroyo. جمعت هذه الحركة رجال دين كاثوليك وبروتستانت أقرُّوا بضرورة التأليف بين المسيحيَّة والماركسيَّة (وهو ما رفضته هيئة الأساقفة في التشيلي فيما بعد). نتج عن هذا الملتقى نص هام يعبّر بوضوح عن الإمكانيات والآفاق الواسعة التـي يمكن أن تنفتح أمـام اللّاهوت الجديد بفضل اقترانه بالماركسيَّة، لما توفّره من جهاز نظري لتحليل واقع التبعيَّة والهيمنة الرأسماليَّة، وأيضاً لما تقدّمه من استراتيجيات للممارسة العمليَّة. نقرأ على سبيل المثال ما يلي: "إنَّ الإيمان من شأنه أن يعزّز الحاجة إلى أن يجري الصراع في اتجاه تحرير كلّ البشر، وخاصَّة تحرير أولئك الذين يعانون من أشكال الجور القاسية. وهو

[19]. Alain Touraine, La parole et le sang: politique et société en Amérique Latine, 1988, p. 113.

[20]. Michael Löwy, « Marxisme et théologie de la libération », p. 16.

يثبت أيضاً رغبتنا في التغيير الشامل للمجتمع عوض تغيير البنى الاقتصاديَّة. وهكذا يساهم الإيمان لدى المسيحيين المناضلين وعَبرهم في بناء مجتمع مختلف نوعيًّاً عن المجتمع الحالي وفي ظهور إنسان جديد"[21].

إنَّ الالتقاء بين لاهوت التحرير والماركسيَّة (غير الأرثوذكسيَّة) في مستوى الرؤية النظريَّة وفي مستوى الممارسة النضاليَّة يدلُّ على أنَّ ما دفع بعدد كبير من رجال الدين المنحدرين من الطبقات الوسطى ومن البورجوازيَّة الصغيرة لتبنّي مبادئ لاهوت التحرير والانخراط في حركته ليس الانتماء الطبقي الموضوعي (الماديَّة)، بل إنَّ الذاتيّة (الأفكار، المعتقدات، الوعي الذاتي) هي التي حدَّدت اختيارهم. إنَّ لاهوت التحرير المناضل كتجربة عمليَّة وكبراكسيس حيّ يدلُّ على أنَّ الفصل القطعي بين الماديَّة والمثاليَّة، بين الممارسة التاريخيَّة والوعي ليس فصلاً قطعيًّاً. لعلَّ تجربة النضال المشترك بين الماركسيين واللاهوتيين سمحت بقراءة الماركسيَّة من منظور مسيحي (لاهوتيّو التحرير) وإعادة النظر في الموقف الماركسي النمطي من الدّين، أي اعتبار الدّين مجرَّد إيديولوجيا لتبرير الهيمنة وتفضيل الإلحاد على الإيمان (الماركسيون الجدد). إنَّ الرهان الذي التقى في سبيل تحقيقه لاهوت التحرير بالماركسيَّة هو تحرير الشعب وتحرير الإنسان. يتحدَّث رجل الدَين الدومينكاني فري بتّو Frei Betto عن الاستجواب الذي خضع له في كتابه "التعميد بالدم: الدومينكان وموت كارلوس ماريغلا" (Baptême du sang: les dominicains et la mort de Carlos Marighela) (1987):

"- كيف لمسيحي أن يتعاون مع شيوعي؟

- بالنسبة إلي، البشر لا ينقسمون إلى مؤمنين وملحدين بل إلى ظالمين ومظلومين، إلى أولئك الذين يريدون المحافظة على هذا المجتمع غير العادل وأولئك الذين يناضلون من أجل العدالة.

- هل نسيت أنَّ ماركس يعتبر أنَّ الدّين أفيون الشعب؟

- هي البورجوازيَّة التي جعلت من الدّين أفيون الشعب، بأن دعت إلى إلهٍ سيّدٍ في السماء بينما امتلكت هي الأرض"[22].

[21]. Christians and Socialism-Documentation of the Christians for socialism Movement in Latin America, New York (Maryknoll) Or-bis books, 1975, p.173 (cite pat M. Löwy, p.14).

[22]. Michael Löwy, « Marxisme et théologie de la libération », p.21.

لم يكتف لاهوت التحرير بالعمل في مجال الدعوة إلى التمسُّك بتعاليم الكنيسة، بل إنَّ الكثير من ممثّليه انخرطوا في النضال الفعلي وحتى في المقاومة المسلحة مثل فري بيتّو والأب كاميليو تورّاس الذي انضمَّ إلى جبهة التحرير الوطني الصاندينيَّة في نيكاراغوا ذات التوجُّه اليساري بهدف إسقاط ديكتاتوريَّة سوموزا المدعومة من الغرب ومن الولايات المتحدة الأمريكيَّة بشكل خاص. في عام 1965 وعلى خطى الأب كاميليو تورّاس انخرط عدد من الشبان المسيحيين في المقاومة المسلحة في صفوف الجبهة الصاندينيَّة. لقد كانوا يعتقدون أنَّهم بعملهم ذاك يجسّدون تجربة السيد المسيح، نصير الفقراء، حتى أنَّ بعض الأغنيات التي كانت تُردّد في الجبهة تصف المسيح بأنَّه "الرفيق يسوع" الإنساني والعامل[23]. لقد كان انخراط لاهوتيي التحرير في المقاومة الفكريَّة وفي المقاومة المسلحة تجسيداً فعليَّاً لتصوُّرهم للَّاهوت الجديد الذي لا ينبغي في نظرهم أن ينحصر دوره في تمجيد الرب ورفض العنف وانتظار الخلاص الأخرويّ. نعم لتمجيد الربّ ولكن من خلال الفعل الثوري إن اقتضى الأمر ذلك. هذا بالضبط ما قاله أرنستو كاردونال دارس الفلسفة والشاعر: "الذين يناضلون ويموتون ليوفّروا الخبز للجائعين واللباس للعراة، وليعلّموا أنَّ الأميّين هم المسيحيّون الحقيقيّون"[24].

أمام الانتشار الواسع للاهوت التحرير في أغلب بلدان أمريكا اللاتينيَّة وبروز توجُّه نحو تحويله إلى قوَّة ثوريَّة عالميَّة تناهض السلطات الاستعماريَّة في أفريقيا، سعت الكنيسة الكاثوليكيَّة الرسميَّة إلى مواجهة لاهوت التحرير كفكر وممارسة، وذلك بتأكيدها على التناقض الجذري بين المسيحيَّة والتحليل الماركسي وإبراز الماركسيَّة كنزعة إلحاديَّة من شأنها أن تنسف فكرة الإيمان وتهدّد الأخوَّة المسيحيَّة. يمكن أن نذكر على سبيل المثال مجمع الأساقفة الكاثوليك (Synodes) المنعقد في روما سنة 1971 الذي حرَّم على رجال الدّين ممارسة السياسة.

خوفاً من خطر الانقسام عبَّرت الكنيسة عن تبنّيها لبعض أطروحات لاهوت التحرير. فقد صدر عن مجمع العقيدة الإيمانيَّة (La congrégation pour la doctrine de la foi) وثيقتان تتضمَّنان توجيهات إنجيليَّة: الأولى بعنوان: "حول بعض جوانب لاهوت التحرير" (6 أوت 1984)[25] والثانية بعنوان: "حول الحريَّة المسيحيَّة والتحرير" (22 مارس 1986) وفيها أكَّد الكاردينال راتسينغر Ratzinger على المبادئ

[23]. Jean Ziegler, Contre l'ordre du monde: les rebelles, Éditions du Seuil, Paris, 1983, p.131.

[24]. Jean Ziegler, Contre l'ordre du monde, p.132.

[25]. وليم سيدهم، لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، ص85

يمكن الاطلاع على هذه الوثيقة من خلال العنوان التالي:

(http://www.vatican.va/roman_curia/congregations/cfaith/documents/rc_con_cfaith_doc_19840806_theology-liberation_fr.html)

الجوهريَّة للمسيحيَّة، واعتبر أنَّ التحرير هو المهمَّة الأساسيَّة للبشارة الإنجيليَّة، وأنَّ التحرُّر الأول هو التحرُّر من الإثم. وأمَّا بخصوص النضال الاجتماعي من أجل العدالة فقد أكدت الوثيقة الثانية على أهميَّة المصلحة العامَّة كهدف لكلّ عمل اجتماعي، واعتبرت أنَّ الخطيئة الاجتماعيَّة التي يتحدث عنها لاهوتيو التحرير لا تقلل في شيء من أهميَّة الخطيئة الأصليَّة، وبالتالي فإنَّ التغيير الاجتماعي يبدأ من تغيير الذات. كما أكَّدت على التمييز التفاضلي للفقراء، ودعت إلى تجنُّب الصراع الحزبي الذي يتناقض مع واجب المحبَّة المسيحيَّة. سيتمسَّك البابا يوحنا بولس الثاني بهذا الموقف (التمييز التفاضلي للفقراء). في خطابه الموجَّه إلى الكرادلة في 21 ديسمبر 1984 أقرَّ البابا بأنَّ عمله الرعوي موجَّه بالتزام الانحياز للفقراء وتفضيلهم. كما أكَّد على أنَّ الكنيسة لا تحتاج إلى مقولات العلوم الإنسانيَّة وإلى التنظيرات الماركسيَّة لكي تهتمَّ بالفقراء، لأنَّ المسيح هو نموذج الفقير. وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ علوم الإنسان والإيديولوجيات تختزل الفقراء إلى مقولات سياسيَّة واقتصاديَّة مجرَّدة، وهو أمر جدّ مختلف عن التفضيل المسيحي للفقراء[26].

كردٍّ على الهجوم الذي قامت به السلطات البابويَّة على لاهوت التحرير واتهام ممثّليه بأنَّهم يعملون على تحويل الدين المسيحي إلى إيديولوجيا ثوريَّة متعارضة مع جوهر المسيحيَّة كان لا بدَّ من توضيح العلاقة بين مشروع لاهوت التحرير والماركسيَّة. لقد ردَّ زعماء لاهوت التحرير المجتمعين في الأسكوريال في مدريد سنة 1972على الاتهامات بتأكيدهم التوجُّه المسيحي الاشتراكي للحركة اللاهوتيَّة الجديدة، الحركة التي تسعى إلى تجذير الوظيفة التحريريَّة للاَّهوت باعتباره يقوم على مبدأ أساسي يتمثّل في أنَّ الشعب هو الحامل الأصلي للاَّهوت، وبالتالي يجب أن يكون اللاَّهوت صوتَ الشعب[27].

القيمة التاريخيَّة للاهوت التحرير:

انتشر لاهوت التحرير انتشاراً واسعاً في أمريكا اللاتينيَّة خلال الستينات والسبعينات بشكل خاص، وأصبح يمثّل بديلاً فعليّاً للكنيسة التقليديَّة التي وقفت خلال كلّ تاريخها إلى جانب القوى المهيمنة والسلطات الزمنيَّة المتنفّذة. في تلك الفترة ظهرت كتب ومقالات كثيرة تهدف إلى ترسيخ التوجُّه الراديكالي للاهوت التحرير، مثل كتاب جون سوبرينو J. Sobrino الصادر سنة 1982 والذي يحمل عنواناً ذا دلالة هو "يسوع أمريكا اللاتينيَّة". تجاوز إشعاع اللاَّهوت الجديد حدود أمريكا اللاتينيَّة، فقد عُقد في تنزانيا (دار السلام) سنة

[26]. « Le service de l'unité et la défense de l'authenticité de l'Évangile », 9, dans Document Catholique, 82, 1985, p.170.

[27]. سيدهم وليم، لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينيَّة، ص 56.

1977 مؤتمر لاهوتي أدَّى إلى إنشاء ما سُمّي "الجمعيَّة المسكونيَّة للاهوتيّي العالم الثالث"، وكان الهدف من ورائه البحث في العناصر المشتركة التي يمكن أن توحّد جهود اللاهوتيّين المنتمين للعالم الثالث، وتساعدهم على الكفاح من أجل التحرُّر من كلّ أشكال الظلم[28].

درس أحد الباحثين موضوع لاهوت التحرير من منظور المجال الاجتماعي (وهو مفهوم مستمدٌّ من أعمال بيير بورديو P. Bourdieu[29])، فانتهى إلى أنَّ التأويلات التقريظيَّة للاهوت التحرير والتي تراهن على تسويغه باعتباره حركة اجتماعيَّة وجدت شروطها في الأوضاع التاريخيَّة والاجتماعيَّة التي مرَّت بها أمريكا اللاتينيَّة في الستينيات من القرن العشرين. يرى الباحث مالك شاوش أنَّه لا يمكن فصل ظاهرة لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينيَّة في الفترة الممتدة بين 1960 و1990 عن الشبكات الكنائسيَّة (Les réseaux ecclésiaux) والمنظّمات غير الحكومية[30]. وهذا يعني أنَّ لاهوت التحرير ليس ظاهرة خاصَّة بأمريكا اللاتينيَّة، على الأقل من حيث أسسها النظريَّة وأبعادها الإيديولوجيَّة، وقد رأينا آنفاً كيف أثَّر فلاسفة ومثقفون مسيحيون ذوو توجُّه اشتراكي في تشكُّل حركة لاهوت التحرير في بعض دول أمريكا اللاتينيَّة. إنَّ المسكونيَّة الاجتماعيَّة (l'œcuménisme social) أو العمل المسكوني المشترك بين الكاثوليك والبروتستانت في أمريكا اللاتينيَّة منذ الستينيات كانت وراءه مصالح ماديَّة كبرى وجهات مُموِّلة مختلفة من خارج القارَّة. إنَّ هذا الأمر من شأنه أن يجعلنا نَحذَر من النظرة المثاليَّة لظاهرة لاهوت التحرير. نعم كان هناك نضال حقيقي خاضه فاعلون ملتزمون بمبادئ الحريَّة والكرامة الإنسانيَّة وبطلب التحرُّر الاجتماعي والاستقلال الوطني، منهم كثير من رجال الدّين تحالفوا مع مناضلين ماركسيين فكانوا رفاق سلاح. ولكنَّ هذه الصورة "المثاليَّة للاهوت التحرير يجب ألَّا تخفي عنا صورة أخرى وهي ارتباط لاهوت التحرير بجهات أجنبيَّة ومصالح ماديَّة ظاهرة وخفيَّة استفاد منها الفاعلون فيها. "إنَّ القيمة اللَّامؤسَّساتيَّة للاهوت التحرير، وإن لم تخلُ من مفاعيل اجتماعية-سياسية (ليس فقط في البرازيل)، لا تتأتى من بُعده المحلي كحركة اجتماعيَّة بل من بُعده الأمَمي كشبكة"[31].

إنَّ لاهوت التحرير لا يمكن أن يجد تبريره التام في واقعَةِ الفقر في أمريكا اللاتينيَّة (البرازيل أو المكسيك أو الأرجنتين) ولا في واقعَةِ انتهاك حقوق السكان الأصليّين (شياباس Chiapas في المكسيك مثلاً)، لأنَّه ظاهرة ولّدتها عوامل مختلفة ومتداخلة فكريَّة-ثقافيَّة واجتماعيَّة-تاريخيَّة، منها ما هو داخلي (التخلف

[28]. سيدهم وليم، لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينيَّة، ص 69.

[29]. Pierre Bourdieu, Questions de sociologie, Paris, Editions de Minuit, 1984.

[30]. Malik Tahar Chaouch, « La théologie de la libération en Amérique Latine » in Archive de sciences sociales des religions, 138, p. 16.

[31]. Malik Tahar Chaouch, « La théologie de la libération en Amérique Latine », p.18.

والفقر والاستبداد السياسي) ومنها ما هو خارجي (عمل شبكات التضامن والعمل المسيحيَّة التابعة للكنيسة الكاثوليكيَّة وللكنيسة البروتستانتيَّة في إطار المنظّمات غير الحكومية ONG).

لئن عرف لاهوت التحرير انتشاراً واسعاً في النصف الثاني من القرن العشرين إلى حدود الثمانينات في أمريكا اللاتينية خاصة، فإنَّه يبدو اليوم منحسراً ومحدود التداول في الأوساط الأكاديميَّة والمثقفة. ولا شكَّ أنَّ التحوُّلات الكبرى التي عرفها العالم خاصَّة سقوط الأنظمة الاشتراكيَّة وعولمة الاقتصاد أدَّت إلى ذلك. يبدو أنَّ لاهوت التحرير قد أفلَ ليترك المجال للاهوت آخَر يهتمُّ بالدفاع عن الحياة. من لاهوت "التحرير" إلى لاهوت "الحياة"، قد يكون الأمر مجرَّد تغيُّر في التسمية، فالحياة هي غاية التحرير بكلّ أنواعه. إنَّ الدفاع عن الحياة، أي عن الإنسان وعن البيئة ليس أمراً عرضياً وليس ترفاً، ولكنَّه اليوم يمثّل ضرورة. ومثلما انخرط اللاهوتيون ورجال الدّين في النضال من أجل التحرُّر الوطني بإمكانهم أن ينخرطوا - وقد انخرطوا فعلاً - في الدفاع عن الحياة. لقد أصبح البشر في أيدي القوى المهيمنة العالميَّة (دول، شركات، جماعات ضغط، شبكات الإجرام) مجرَّد أدوات وسلع (تجارة الأعضاء البشريَّة، تجارة الجنس، الرقيق الأبيض، احتكار الأغذية والأدوية ...إلخ)، وفي أحسن الأحوال مستهلِكين. في ظلّ هذا الوضع أيّ دورٍ للّاهوت؟ وأيّ دورٍ للدّين؟ هل سيكون دور الدّين -كما كان منذ مئات السنين - "تخدير" الجماهير لخدمة االسادة والحكام والنبلاء الجدد أم التحرير بكلّ معانيه، أي تحرير الطاقات الحيويَّة في الكائن الإنساني وفي الحياة بصفة عامَّة؟ ولكنَّ هذا السؤال الأساسي يثير أسئلة أخرى لا تقلُّ عنه أهميَّة: مَن المؤهل للتكفُّل بوظيفة التحرير، المؤسَّسة الدينيَّة (وهي مؤسَّسة سُلطويَّة) أم الوعي الفردي، وعي الإنسان المعاصر المؤمن والمستنير؟ وماذا عن الدين الإسلامي؟ كيف يمكن أن يتحوَّل الإسلام إلى دين تحرُّر؟ لنكتفِ بالقول هنا إنَّ الشرط الأوَّل لذلك هو أن يصبح الدّين موضوعاً للتفكير الحر، وأن تُطرح عليه وفيه الأسئلة النقديَّة الجذريَّة -وهي لم تطرح إلى حدّ الآن- ولكنَّ ذلك قد لا يحصل ما لم يتمّ "تحرير" الدّين ذاته من سُلطة العقل الفقهي.

إنَّنا لا نجد في تاريخ الإسلام شيئاً يمكن أن نسمّيه لاهوتاً تحريريَّاً، وإن كنا نجد "فقه السلطان" الذي كان دوره تزيين حكم الحكَّام وتبرير السلطان المطلق. ومع ذلك فإنَّ التاريخ الإسلامي لم يخلُ من ظواهر وتجارب تدلُّ على وجود روح ثوريَّة في الإسلام، ولنكتفِ بالإشارة هنا إلى مثالين: الأوَّل يتعلّق بشخصيَّة نموذجيَّة وهي شخصيَّة الصحابي "أبو ذرّ الغفاري"، والثاني يتعلّق بتجربة جماعيَّة وهي ثورة الزنج في القرن الثالث للهجرة.

لا شك أنَّ تجربة لاهوت التحرير المسيحي تدلُّ على أنَّ الدين يمكن أن يكون إيجابياً في حياة البشر، فلا يختصُّ بمجال الحياة الخاصَّة لجماعة المؤمنين فحسب، بل يمارس دوراً تحريضياً وتوجيهياً في سبيل

التحرير الشامل. ولعلَّ السؤال الذي يجب طرحه بعد أفول تلك التجربة هو: لماذا استمرَّ الدين منذ قرون وإلى اليوم يمارس دوراً تبريرياً للسُّلطة السياسيَّة القائمة، دور تكريس الهيمنة؟

مسرد المراجع:

- وليم سيدهم اليسوعي، لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينيَّة: نشأته، تطوره، مضمونه، دار المشرق، بيروت، 1993.

- Bourdieu Pierre, Questions de sociologie, Editions de Minuit, Paris, 1984.

- Burneau T. C., « Church and politics in Brazil: The Genesis of change » In Journal of American Studies, Cambridge University Press, Number 17, November 1985, pp. 286-29

- Brian H. Smith, The church and politics in Chili: challenges to modern Catholicism, Princeton, Princeton University Press, 1982.

- Durkheim Emile, Les Formes élémentaires de la vie religieuse, puf, Paris, réédition de 1960.

- Gutierrez Gustavo, La théologie de la libération, perspectives, Lumen Vitae, Bruxelles, 1974.

- Löwy Michael, « Marxisme et théologie de la libération », Cahiers d'Étude et de recherche, n° 10, 1988 (Montreuil, France).

- Löwy Michael, « Gerd-Rainer Horn, Western European Liberation Theology,1924-1959, the first wave », Sciences sociales des religions [En ligne], 148/octobre-décembre 2009, document 148-67. (http://assr.revues.org/21146).

- Tahar Chaouch Malik, « La théologie de la libération en Amérique Latine » in Archives de sciences sociales des religions, 138, Varia, Avril-Juin, 2007, pp. 9-28.

- Touraine Alain, La parole et le sang: politique et société en Amérique Latine, Éditions Odile Jacob, Paris, 1988.

- Ziegler Jean, Contre l'ordre du monde: les rebelles, Éditions du Seuil, Paris, 1983.

(http://www.vatican.va/roman_curia/congregations/cfaith/documents/rc_con_cfaith_doc_19840806_theology-liberation_fr.html).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017